

# ملحمة كلكاشم وقوانين حمورابي واسهاماتها الحضارية

## لغته عبد النبي الخرزجي

تمكن الدكتور طه باقر أن يضع بين أيدينا الترجمة شبه الكاملة لأسطورة الإنسان العراقي الذي عاش فوق تراب هذه الأرض منذ ما يقرب من خمسة آلاف سنة «ملحمة كلكاشم» تلك الوثيقة من التاريخ والمعرفة والفن والأدب والحضارة الأصيلة... وقد استطاعت تلك الترجمة الرصينة أن تقدم للقارئ العربي حصيلة معرفية نادرة... من خلال تلك الصور الإبداعية والجمالية والفنية لتلك الحضارة الموهلة في القدم "بحود الألف الرابع قبل الميلاد".

إن حضارة وادي الرافدين وراثت الإنسان الذي استوطن على ضفاف نهرى دجلة والفرات وما بين النهرين» قبل ما يزيد على خمسة آلاف عام قدمت للإنسانية معالم وأماقاً حضارية ومعرفية تاريخية باذخة الألق ومنحت الإنسان العراقي مرتبة جعلته في قمة الهرم الحضاري ويعتلي سلم التاريخ البشري بقامة مستطيلة القوام.

وقد استطاع علم الآثار الأركيولوجيا، أن يحدث انقلاباً خطيراً في معرفة الإنسان بتأريخه وحضارته وعلومه وتراثه المعرفي والأدبي والفني حيث قدم هذا العلم دراسات واسعة في مجال الحضارات والمدنات القديمة وتمخّن أن يجعلنا أمام حضارة سبقت كل الحضارات، حيث كان الباحثون في الغرب يعتبرون أن أول الحضارات وليس فوقها معارف أو مدنات وهي حضارة الرومان واليونان... التي كان الغرب يرامن عليها أنها هي أقدم حضارة في التاريخ... وقد تأكد العلماء أن حضارة وادي الرافدين قد وضعت البشرية أمام تحدٍ حضاري لا يرقى إليه الشك، حيث أن تلك الحضارة وتلك الإنجازات المدنية والمعرفية والفنية والسياسية والأدبية التي شهدتها الرقعة الجغرافية الممتدة من منبع النهرين إلى مصبهما... كانت واحدة واسعة للعديد من الحضارات

ويؤكد ذلك الدكتور طه باقر، وهناك ميزة أخرى تميز أدب العراق القديم على الآداب العالمية القديمة تلك هي أن كلا من الآداب التي أوردتها للمقارنة به قد عانى الكثير من التحوير والإضافة على أيدي الجامعين والنساج والشراح، في حين أن الأدب السومري والبابلي قد جاء إلينا على هيئته ونصوصه الأصلية تقريباً، كما دون بأقلام كتبة العراق القديم على ألواح الطين قبل أربعة آلاف عام..

ومن أتاحت له الفرصة قراءة هذه الملحمة العراقية كاملة كما ترجمها الدكتور طه باقر فسرى أنها قد ألت بكل السوادث والأعمال والإنجازات العلمية والأدبية والعمارة والحربية والسياسية فهي عبارة عن إنسكوبيديا تحكي للتاريخ ملفات كلكاشم المتعددة، حروبه وسياسته وظلمه ووحشيته وغضبه وجبروته، وسلطه وعنفوانه، وقوته، ولعل ملحمة كلكاشم الخالدة خير ما يعبر عن الاتجاه الإبداعي الثوري الذي استمت به حضارة وادي الرافدين في مختلف عصورها، فهي خافية وحدها لأن نبوءة هذه الحضارة أسى مكانة في تاريخ الفكر العالمي والحضارة البشرية.

وتقرأ في الفصل الأول من الملحمة هذه المقاطع:

من ذا الذي يضارعه في الملوكية؟  
من غير كلكاشم، من يستطيع أن يقول: «أنا الملك»!  
ومن غيره من سمي كلكاشم من ساعة ولادته؟ فتناه إليه وتلته الباقي بشر

لقد صممت هيئة جسمه الألهة العظيمة وفي العمود الثاني:  
لم يترك كلكاشم أبناً طليقاً لأبيه لم تنقطع مظالمه عن الناس ليل نهار

لم يترك كلكاشم عذراء طليقة لأبها ولا ابنة مقاتل ولا خطيبة البطل إن هذا يؤكد للباحث والقارئ اللبيب... أن الملحمة قد كتبت في زمن غير الزمان الذي عاشه كلكاشم... لأن ما ورد فيها من إشارات واضحة ولا غموض فيها عن المظالم التي كان يستعير بها كلكاشم لبسط نفوذه وسلطته. أن تلك الإشارات أو بالأحرى ذلك التأكيد على قسوة كلكاشم وعنفه وصلابته وتهوره واستبداده وجوره... إنما تدل على ما أوردناه من أن الملحمة قد كتبت في وقت لاحق وبعد كلكاشم. أما إذا كانت الملحمة قد سيخت سطورها وسطرت حروفها في زمن وسلطة كلكاشم فهذا دليل آخر على عظمة كلكاشم لأنه كان «ديمقراطياً» ويقبل بالرأي الآخر... لأننا نعرف أن الملوك والسلاطين والأباطرة والأمراء لا يقبلون رأي أي شخص ولا يرغبون أن يتحدث أي لسان عن مساوئهم وظلمهم وطمعانيهم... لأنهم أنفسهم أنصاف آلهة.. أو كما ورد في النص أعلاه تظني الآله.

ومع إن الأدب الذي أبرزته الملحمة... كان يمثل إبداعاً معرفياً «وعلى الرغم من أن هذه كانت أول المحاولات في تاريخ تطور الإنسان الأدبي بيد أن مما يدعش الفاحص لأدب وادي الرافدين هو أنه، مع إغفاله في القدم وسبقه جميع الآداب العالمية، يتميز بالصفات الأساسية التي تميز الآداب العالمية الناضجة، سواء كان ذلك من حيث الأساليب وطرق التعبير، أم من ناحية المحتوى والموضوعات التي تناولها، أم ناحية الأختلة والصور الفنية والعرض القصصي والروائي. إن المضمون الإنساني الذي اشتملت عليه الملحمة والمحتوى الإبداعي الذي أعطى هذه الوثيقة التاريخية... هذا المسار

الخالد عبر القرون لاشك يدل على عمق المعايير الإنسانية التي أطرتها هذه الملحمة ومضمونها الحضاري وأسلوبها المتقن في سياقات الأداء الأدبي والمعرفي والروائي والقص في إطار فني متأنق «فالملمحة عبارة عن نص أدبي اجتماعي فكري جمع في طياته كل المعاني الجميلة للحب والصدقة وفعل الخير وانتصار الإنسان للروح الإنسانية».

## أسرار وأحداث الطوفان في حضارة وادي الرافدين

المصادر التاريخية التي تناولت أحداث الطوفان العظيم تكاد تنحصر في الكتب المقدسة «التوراة، الإنجيل، القرآن»، لكن الملفت أن ملحمة كلكاشم وأسطورة الخلقه واكتبر من النصوص المسماة التي عثر عليها في جنوب العراق استقطبت انتباه الدارسين والمهتمين بتراث الحضارات القديمة، وخاصة الحضارة الإنسانية المتميزة في بلاد وادي الرافدين وتعرف من خلال العديد من البحوث والدراسات في هذا الجانب على أن الطوفان مؤذن للعراق في جنوب العراق بشكل خاص، وفي أوركاء تحديداً.

ويذكر الدكتور طه باقر، الباحث القدير في حضارات وادي الرافدين والنصوص المسماة «علم الأريكيولوجيا» في كتابه «ملحمة كلكاشم...» القصص والأساطير والمذونات المسماة حيث يؤكد على حلق الرابع من كتابه «ملحمة كلكاشم» وفي طبعته الرابعة «لم يصل إلينا عن الطوفان في اللغة السومرية سوى نص واحد دون في لوح طينتي يرجح كثيراً أنه عثر عليه في المدينة المشهورة «نقره القريبة من عك. ومع أن هذا اللوح غفل من التاريخ، بيد أن لغته وشكل خطه المسماي، يشيران إلى أنه يرقى في تاريخه إلى ما يسبق في

تاريخ العراق القديم بـ «العصر البابلي القديم». ثم إن الدكتور طه باقر يورد القصص والأساطير التي تحدثت وتكررت وتتوالى الطوفان، ومن تلك المصادر التي ذكرها الدكتور باقر:

- ١ - رواية الطوفان السومرية «زيو - سدر».
- ٢ - رواية «بيرو سس»، عن الطوفان.
- ٣ - ملحمة «أترا - حاسس»... عن الطوفان.
- ٤ - خبر الطوفان كما جاء في التوراة «سفر التكوين: الصحاح السادس - التسامح».

الرواية الأولى: رواية الطوفان السومرية «زيو - سدر»: هذه الرواية التي وردت في مؤلف الدكتور طه باقر «ملحمة كلكاشم» تشير إلى أنها جاءت ضمن لوح سومري بنص واحد «دبون في لوح طينتي يرجح كثيراً أنه عثر عليه في المدينة الشهيرة - نقره».

ويؤكد الدكتور باقر أن اللوح كان فارغاً من أي معلومات تاريخية إلا أن «لغته وشكل خطه المسماي يشيران إلى أنه يرقى في تاريخه إلى ما يسبق في تاريخ العراق القديم بـ «العصر البابلي القديم - مطلع الألف الثاني ق.م».

وفي الوقت نفسه يذكر الدكتور باقر بأن الباحث الشهير «أرنو بيبيل» كان أول من نشر ذلك اللوح عام ١٩١٤م. ثم أعقبه باحثون آخرون أشهرهم «كرام».

وتقرم من خلاصة هذه الرواية، حول أحداث الطوفان، بأن «زيو - سدر» تعني بلغة العراق القديم «الخالد، السرمدي، الأبدى» وهي مفردة معادلة للاسم البابلي لبطل الطوفان «أوتو نيشتم». وخالصتها أن «زيو - سدر» الملك الخالد والذي يخاف الإله ويقدم له القرابين، ويسير بتوجيهاته.

كان يحكم مدينة - شروباك - وهي من المدن الجنوبية وغربية على - أوركاء.

هذه الملحمة التاريخية تشير بشكل واضح إلى إن بلاد ما بين النهرين كانت مهداً لحضارة عريقة، وفي الوقت نفسه هي أقدم حضارة إنسانية ساهمت بتقديم صورة مشرقة لإنسان وادي الرافدين وعظمته وإبداعاته، كما منحت مساهماتها في الحضارة الإنسانية من خلال هذه الملحمة، حيث قدمت باقة إبداع ونموذج حضارة ورفي بلاد أسما «بلاد ما بين النهرين».

## حمورابي والقوانين والتشريعات المرئية القديمة:

يمكن التأكيد على أن الحضارة العراقية القديمة كانت تولى القوانين والتشريعات عناية خاصة وتعمل جاهدة على تشريع القوانين في مختلف القضايا الإنسانية لتوطيد الأمن وحفظ الحقوق وتوفير الاستقرار وإشاعة الأمن والطمأنينة بين أفراد المجتمع. ويؤكد الباحثون في تاريخ الحضارات القديمة، أن القوانين انحصرت في بلاد ما بين النهرين «وادي الرافدين» ولم يلاحظ ظهور قوانين أو تشريعات في تاريخ مصر القديم. وهذا بطبيعة الحال له مبررات تاريخية:

- ١- كان الفرعون في مصر هو الإله. بينما في وادي الرافدين كان الملك «نائب الإله» في الأرض.
- ٢ - وهذا كان من الأسباب الرئيسية التي منعت المصريين القدماء من إصدار التشريعات القانونية. بينما حركت الأفراد والمجموعات الإنسانية في وادي الرافدين للمطالبة بتوفير الأطر القانونية التي تساهم في توفير قدر من الاستقرار وتضمن للشعب الحرية والعدالة الاجتماعية

## وبقية المفاهيم الإنسانية.. الإصلاحات والتشريعات القديمة:

وستستف من البحوث والدراسات التي تناولت التشريعات العراقية القديمة... بأن الشعوب التي عاشت في وادي الرافدين.. كانت لها مشتركات تضعها في ميزان مقارب من حيث الإحاطة بالتشريعات والأطر القانونية مما يدل على الفهم الواضح في ضرورة سيادة القانون وحكم القضاء وسلطة الدولة والعدالة الاجتماعية. وفي الوقت نفسه..

تؤكد تلك الدراسات أن الشعوب التي بسطت نفوذها على أرض العراق قديماً كانت تمتلك حساً قانونياً وتشريعياً جعلها تلمست بالقوانين لبسط سلطتها وحماية الأفراد والمواطنين... وهي حالة ظهرت في العراق القديم قبل أن تعرفها شعوب العالم بفترات بعيدة جداً ولا مثيل لها لدى الشعوب الأخرى.

كان اختراع الكتابة في جنوب بلاد الرافدين، قبل أكثر من خمسة آلاف سنة تقريباً قد أضاف حلقة جديدة في مسار تطور الإنسان في هذه البلاد، وبذلك حصلت طفرة نوعية في تاريخ البلاد بعد هذا الاختراع الكبير.

وقد أتحت هذه الانتقالة النوعية في معرفة الكتابة، جملة إصلاحات ووضعت الأسس الابتدائية أورو كاجنيا وهي نصوص سومرية جاءت مكتوبة بالخط المسماي القديم، تلك الإصلاحات أصدرها حاكم «لكش» من السلالة الأولى ويعود تاريخها إلى ٢٢٥١ - ٢٣٤٢ ق.م.

ورغم أن تلك الإصلاحات لا تشكل قانوناً إلا أنها كانت بداية موقفة للتواصل مع تشريعات جوهريه تأتي تباعاً لمواكبة حركة الإصلاح وحاجة الإنسان لحماية مؤطرة بتشريعات وقوانين واضحة.